

خالد بن الوليد

على فراش المرض في حمص

نذير الحسامي

❦
 اواخر الليل ومع اول بزوغ الفجر من إحدى ليالي العام ٢١ للهجرة
 (٦٤٢) م ، حمل الأثر في الضاحية الشمالية لمدينة حمص أصداء حزينة
 لحديث ذي شجون يصدر عن شبح لرجل في الثامنة والخمسين من
 عمره مهيب الطلعة حاد الملامح يتململ على فراش المرض في حجرة متواضعة من
 منزل قديم . فاذا دنا السامع يتأمل صاحب هذا الحديث تبين أنه للصحابي البطل
 سيف الله خالد بن الوليد وقد علق بصره بسيفه ودرعه معلقين على الحائط تجاه
 فراشه وكأنه يراهما قلقين يبتانه همهما من الراحة ومن طول الليل عليهما ؛
 ويراهما المتأمل كأنهما في حوار شجي صامت مع صاحبهما المريض . وتبدو على
 أسارير خالد ظلال شاحبة من غضب حزين وهو ينظر اليهما على ضوء شعاع حي
 يتسلل من الفجر ويقرأ في صفحاتهما سطور ماض مجيد . . . ثم يسمع صهيل
 فرسه في صحن الدار وكأنها تشكو الى فارسها ضجرتها من طول ما استجمت بعيدة
 عن ميادين القتال .

وياخذ خالد في حديث المتوجع المتحفز مع سيفه ودرعه والعرق يتصبب من جبينه المشرع،
 مستذكراً وقائع البطولات في معارك الفتح التي خاضها مظفراً على جواده وقهر فيها أعداءه
 واعداء الدعوة الى الحق وياخذ في القول مترسلاً مع الذكريات البعيدة والقريبة وهو
 كالليث المكبل في مضجعه ، بعد أن عزل عن إمارة حمص :

□ خالد مع سيفه :

خُطِنِي منك طال بعدك عني يا أخي في دجى الخطوب وخِذْنِي
 اتناسيت ما قرأنا وسَطَرْنَا على الدهر في نهار ودجن ؟

من معالي السيوف في شرف الكرة نروي الآيات : مثناً لمتن
 ضمناً في العلا هوى لا يجارى أنا فيه الحادي وانت المغنّي
 أيها السيف نحن سيفان : في الحق بياني وفي ضحي الحق تبني
 في يميني تصول بالضربة اليك سر فيثني فم العلا فتثني
 يجفل البرق حين تبرق في الجلى بكفي تشق كل مجن
 في سبيل الرحمان لم ترحم الإنك وفي المجد ما هدات بجفن

★ ★

يا صديقي في حلبة الليل من اهلي ، دُجاها هي المنى والتمني !
 ورفيقي إلى الضحى في شعاب النور : اجني من زرعهم وتجنّي
 لم اخن ودك الحميم كما انت على كل حالة لم تخني
 السيوف التي بمكة تحكي أنك السيف في اللقاء واني ...
 والمطايا على دروب رسول الله ، في وهج جمرتيننا ، تغني
 افتنأى عن قبضتي وسنا الأيام في صفحتك يسكن جفني ؟
 ادن مني هل مل رؤاك خيال قائل لي على السكينة : دعني ؟
 اتراني اقول ، والشرر البراق في مهجة لديك وعين :
 خلني منك أيها السيف يا من يُمنه كان في الملمات يمني ؟
 اترى فلت النوى لك حداً ؟ أم ترى فلّ من لظاي التجني ؟!
 أبداً لن تنام عنك أمانى ومنك الصليل يقرع اذني
 يا عقاباً على الجراحات ما ها ن ولم ترمه الليالي بوهن
 إنك الصارم الذي يتنزي قلبه خلف جانح مطمئن
 الغبار الذي عليك تطوى جلّ أن يتلي بهالك بشين
 افتجفى وابن الوليد ، أبو بأسك ، لم ينهزم ولم يُجف بابن ؟
 هذه نشوة الأذان سرت فيك فهل صحت بي : أخالد خذني ؟
 وطوب الفتوح من نفّح ذكرا لك استفاقت فرحى تطيب حزني
 أيها السيف طبّ بحدّي حداً انت جاري وجيرة السيف تغني
 ما تخلّيت عنك يا صاحبي الفرد ولا انت قد تخلّيت عني

في الدياجير أننا
 ما عرفنا بها الونى
 غسل السهد جفنا
 ومع الجرح غلنا
 هجسه ما اضلنا
 الردى ما استذلنا

لن يطول الدجى بنا
 نحن في الفجر حبنا
 ومع الحق دربنا
 في غد تشرق المنى
 وتغني لنا الدنا
 أيها السيف حسبنا

وتجرد معي أنا
نظم النصر جرحنا
ونرى البرء صبحنا
سورة الفتح سؤلنا
هي بالحق جبلنا
فالئى الله سبئلنا

والأسى ما استحلنا
ما مللنا يعلنا
صابه وهو ملنا !
ذلنا ليس ذلنا
والبكا ليس غزلنا
فاطو يا سيف ليلنا
فلنا حدنا لنا

★ ★

إيه يا ابن الفتوح يا فالح الكفر تجلتي مهزماً مسلولا
أعلى الحلم في قرابك تمضي ؟ أي حلم يطوي الدجى معلولا ؟
ومضات الهوى الى الشمس معرا جك فاعرج بجنحه متبولا
وامسح الهام في صفوف الأعادي أنت للهام : معتقاً مكبولا
وانطلق بي اني مللت اضطجاعي أتملى فيك العهد الأولى
مذ رضعنا درء الإباء هصورين وعفنا في الأسد الا نصولا
قصر الزيف ان يطول علا السيف متى كان في السيوف أصيلا
كبلتنا بليها الجاهلييات ولكن عدنا نفض الكبولا
ايها السيف يا صديقي أما زلت يؤاخي الخليل فيك الخيلا ؟
أنت في ليلتي محدث ساعاتي وما كنت في الحديث قليلا
كن معيني على الضنى بحكايانا مع المكرمات : فعلا وقبلا
ما على حلمك المؤزر في الإصباح إن جاز غمده قنديلا ؟
إيه يا سيف ما يضرك أن جاوت في مسحة الرؤى المستحجلا ؟
أي ضمير اذا تركت عليلا في فراشي لألقيه قتيلا (١) ؟
مضجعي لا يطيب الا اذا وسدت يا سيف مثخنأ مبلولا
بُح صوت الساحات خلفي تنادي فارس السباح أن يصل صليلا

□ خالد مع درعه :

هوذا الدرع في جوارك يشجى لم يجد من حنان صدري بديلا
عزه دفء جانحي على الكبر وقلب يروي المضاء فصولا
هزء شوقه الى الفارس المضنى وكان الضنى عليه ثقيلا
كاد من طول ما يعاني من اللهفة للقرب أن يسيل مسيلا
زرء حن الحنايا بصدر ظل يسقيه جمره سلسبيلا
خرقته الرماح طعنا وتجريحا وزرق السهام عرضا وطولا
كل جرح به رواية جرح كان في الليل للضياء سبيلا

طالما ضمّ مقلتيه على الطعنة يسقي ضفافها تقيلا
وانحنى يذرف التهليل للنصر فيرغي جرح الهدى تهليلا
إنه الدرع أيها السيف فاسأله أذاق الفراق منا طويلا ؟

★ ★

□ خالد وفرسه :

هي ذي في مسامي حَمَمَات من قريب تصكّ قلبي صهيلا
فرسي والجمام طال عليها كيف ما بينها وبينى حَيلا ؟
عرفتْ جريها الميادين طوفاناً يلف الربا ويطوي السهولا
تنبري للزحوف صاعقة الحق تلمّ الميدان : شبرا وميلا
كلما دقت الثرى بيّ شماء تهاوى صرح الطفافة ذليلا
عقد النصر فوق ناصية منها فماست ذؤابةً وحجولا
غرّة الصبح في الدجى بين عينيها حديث الركبان جيلا فجيلا
فرسي عن مداي اتعبها اللُجْم وحارت في شوقها تعليل :
اين ابن الوليد صاحب ايامي يهز الدنيا : قبيلاً قبيلاً ؟
اين ابن الوليد ينشر بي الأرض ، اقتحاما ، لينشر التنزيلا ؟
إن مضى فالقضاء كراً على الأعداء .. هل يعرف القضاء تأويلا ؟
يتحدى البروق في خطفه الأقران لا حاملاً ولا محمولاً (٢)
هو ابن الوليد كم قصّر الظلماء لما أبى الضحى أن يطولا
فاذا ما شفى غليلاً على الضرب أجدت له البروق غليلا
فلو اسطاع سلّتي سيف يراه .. اما كنت في مداه السليلا ؟
عاصف في الوغى وفي عتبة الواحد ي حول الإعصار ريحاً بليلاً (٣)
طالما صاح : يا بَنِي ، على الموت ، ردوا البحر او فخوضوا النيل
قطّعوا جبل من بغى ولتكنوا في الليالي جبل الردى المفتولا
يا جنود الفرقان سنّتكم الأقدار في قبضة المضاء نصولا
زارتْ عصبةُ الظلام فكبرتْ فاقمى زار الليث هديلا
فجّروا الشمس لن تزولوا مع الشمس اذا همّ قرصها أن يزولا
شرف المجادين ديناً ودنيا أن يطيّبوا تحت الهجير مقيلا
وعلا القائد المظفر أن يضفر للسباح من دم إكليلا
لا تهونوا تهنّ بأغمادها الأسياف او تشكّ في لظاها الأفسولا
لا تفيضوا عليكم من حديد حده كان عندكم مقلولا
واحدروا في فجاج كل مراد أن تخافوا قبل الوصول الوصولا

★ ★

آه لابن الوليد آه لنفسي هزل الدهر فالتقاني هزيلا ؟!
فرسي في العراء والسيف والدرع يهيجان للركوب عليلا !!؟

يا أعاصير زنجري
في الدياجير وازاري
بحمي لم يحرر
وهوى لم ينور
فجّري كل كوثر
في يباب ومقفر
وإذا عزّ فاسفري
عن سناً منك أخضر
هتلي ثم كبّري
واكفري بالونى اكفري
زلزلي الكوخ واكسري
جنعه الخائر الطري

ثم ميلي بقيصر
وبكسرى ومنذر^(٤)
فهم ارث أعصر
أشعلي نار قسنود
وأبى غضنفر
في الهدى ليس يمّري
زعزعي كل منبر
لم يسيّج بمزور
حرري الناس حرري
من فخر مزور
وانصري الحق واشتري
كلّ مجد مؤزّر
بدم منك أحمر

□ خالد على فراشه :

وانقلبي ايها الأعاصير ترديد حدائي الى الذرا والبوادي
وانشري من رسالتي كل مقروء ومن صبح ليلتي كل بادي
افيدعى فتى الجهاد ؟ ومن يدعو ؟ وهل طال عهدنا بالجهاد ؟
ما قعودي يؤرق الحزن جنبيّ وتبكي عين اللظى في زنادي ؟!
ما قعودي على فراش من السقم ويذكي ناري النداء الحادي ؟
يتمنى الجبان مثل فراشي لو يسوط الجبان وهج اتقادي
يا لسقمي رزئته يلجم السيف بكفي والشووط في أمادي
يا لسقمي يجنّدل الفارس الصعب ويلقي يديه في الأصفاد !
لم افارق في مقعدي صهوة الشقراء ؟! آها للعلم من غير زاد
انا ما خفت أن تضععني الحمى ولم أخش هاجساً لمعادي
غير اني اقضي طريحاً فلا نامت على بشرها عيون الأعادي^(٥)
شهداء الفتوح قربهم سيفي وضمنّ الفراش باستشهادي ؟!
يعلم الله أنني ، في هدى الله ، زحوفي وبطشتي واعتدادي
عمر ما كبا له خلّق في الحق او مال في الهوى عن سداد
انه في الرجال بحر المروءات وفي الهسدي اول السوراد
غير ان الذي رماني فيه خطاً في اجتهاده واجتهادي^(٦)

□ خالد مع المصارك :

إيه يا سيفي المعنى مع العاني أحدثتني بغير الرشاد ؟
تعرف الردة التي قهر الحق خطاها ما كان فيها ارتدادى
طهر السيف رجسها في يميني وجلا الفجر ليلها في قياي
وزهاني من الخليفة (٧) تكبير ولى مؤبد الأجناد
أين يوم في القادسية كنا و (المثنى) (٨) فيه على ميعاد ؟
إيه (ذات السلاسل) (٩) البيض قصي منه ما قص صارمي وجوادي
وانفجنا بما شمت من الطيب بيوم (اليرموك) (١٠) في كل نادي
يوم أوردت فيلق الروم في الوادي بسيفي حتف الربا والوادي
يوم نسيتهم وساوس نعماهم بسيف نسي ضلال المراد
في سبيل السماء ما علّت الأرض من السيف والدماء الصوادي
في سبيل الرحمان ما عفّ من كفي وما خف من ركابي وزادي
صقلتنني يد النبي مع الإسلام شداً فبالنبي اشتدادي
ويح لابن الوليد من غصّة تجرح بالذكريات شدو الشادي
(أحد) لم يزل على حد سيفي جرح هادٍ فيه وشهقة فادي (١١)
يا دمي في (حنين) (١٢) ، دون رسول الله ، هل منك بلّة للصادي ؟

★ ★

□ خالد وحمص :

الف' أه بل الف' بعد من الآه الشكو عن الديار بعادي ؟
أنا يا حمص جانحي بك مقصوص وفي ضفتيك شطر فؤادي (١٣)
لي على حمص يا جيرة ، يا شذا الأهل ، ومنى تمشي بها أكبادي (١٤)
عانقتني فذقت يشرب والبطحاء في عرفها وزرت مهسادي
حضنت وحدي مع الليل والذكرى وسيفي وحسرتي وجلادي

★ ★

□ خالد يغيب مع الذكرى وهاجس الموت :

ما أرى إيه الضنى ؟ أرقاد في انتباه أم صحوة في رقاد ؟
أرى في نواظري من قریش غمزات الأنداد ؟ من أندادي ؟
وعلى مسمعي مشي الأقاويل وسعي الإشفاق من عوادي ؟
يذكرون الجواد في مكة الخصب بما سلسلته كف الجواد (١٥)
ويشبهون من رماد لياليه لظى لم تمت بريح العوادي
الصناديد منهم عرفوا الفارس صنديد وقعة وطراد
لم يكدر سنا وقائعهم فيهم بشيء من لوثة وسواد

★ ★

ليت شمري يطرق الأذن مني وانا في الدجى الى الموت غادي ؟
صَرَخَاتُ النساءَ عند بني مخزومَ يَكِينَنِي مَسْعُ الْإِنشَادِ ؟
قَائِلَاتُ : أبا سليمانَ يا لهف هوانا للكوكب الوقاد
مات حامي الخدور من مازق البغي واودى سيف الشعاع الهادي ؟؟
خالدُ بن الوليد حلم الصبايا ورجاء الوهساد والأنجاد
خالدُ مات ؟؟ فلتنوح عليه يا غواذي ولتفجعي يا ايادي
ولتقصّ الشعور حزناً على البدر ثوى في الشفاف بعد السواد(١٦)

★ ★

يا بنات الإباء والمجد من اهلي بارض الآباء والأجداد
خالد بينكن يحيى حمى الطهر ويرمي بسيفه كل عادي
عمر كن الإله ما غبت عنكن وان غاب بينكن وسادي

★ ★

□ في نجواه لحمص :

لا ولا العار مشربا
انف الجبن مهريا
وخنا الذل ملهبا
غائل الداء انشبا
في نأبا ومخلبا
غسلي الجرح ملهبا
واندييه مفربا
شيتعيني محببا
وخذيئي معذببا
فاذا هبت الصببا
فانشقيني مطيببا
وازرعي الجرح كوكبا

إيه يا غادة الربا(١٧)
نشري الفجر طيبا
واذكري فارسا ابي
في الدجى ان يغيبا
قبل ان يذكر الصبا
والبلاء المجربا
حمص يا دارة الظبي
فرسي فيك ما كبا
وهوى السيف ما نبا
سلطني الله مضربا
من ذرا الصم اصلبا
عائقي في اغلبا
لم ير الضيم مطلببا

نذير الحسامي

حمص ١٠٤٠٣ ربيع الآخر ١٤٠٣، ١٩٨٣/١/٢٤

الحواشي :

- ١ - اشارة الى ما كان يتمتع به البطل خالد بن الوليد من الموت في ساحات القتال .
- ٢ - كان الماثور عن خالد قدرته الشجاعة اذا حمي القنصل في المبادرة الى اختطاف الاقران من اعدائه من صهوات خيولهم والنزول اليهم خبطا بالارض .
- ٣ - اشارة الى ما كان يبدو على خالد وهو البطل العنيف من رقة في الطاعة والانصياع لما كان يواجهه به النبي الكريم احيانا من مسائلة ...
- ٤ - المنذر بن النعمان الذي كان عامل كسرى الفرس على ملك الحيرة وساعده في التصدي للعرب هناك .
- ٥ - اشارة الى قولة البطل التي ذهبت مثلا في التاريخ للشعوب والافراد والتي قالها وهو على فراش الموت لاحد عواده وهي: « لقد شهدت مئة زحف او زهاءها وما في جسمي موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف او طعنة برمح او رمية بسهم وهانذا اموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير فلا نامت اعين الجبناء » .
- ٦ - اشارة الى ما عرف من ثناء خالد على الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتبرئته له من ان يكون داخله غير ابتغاء وجه الحق فيما تصرف به ازاء خالد مما كان موضع ندم من الخليفة نفسه فيما بعد واعتراف بمكانة خالد في الاسلام .
- ٧ - الخليفة ابو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان يعتز بالبطل ابن الوليد ويقربه ويدعوه بالاسم الذي سماه به الرسول عليه السلام وهو « سيف الله المسلول » .
- ٨ - المثني بن حارثة الشيباني القائد الصحابي الذي اشترك مع خالد بن الوليد في وقعة (ذات السلاسل) ضد الفرس في العراق .
- ٩ - سميت وقعة خالد المظفرة في العراق ب (ذات السلاسل) لان جنود الفرس وعلى رأسهم قائدهم هرمز كانوا مقيدين فيها بالسلاسل منعاً لهم من الفرار .
- ١٠ - الوقعة المشهورة التي حطم فيها خالد جيش الروم في وادي اليرموك والتي كان لظفره العظيم فيها مؤذنا باجلاء الروم عن بلاد الشام .
- ١١ - كان خالد يشعر بالفصّة في ذكرياته مع فتوحاته ووقائعه وهو يستعرض في خياله ذكرى وقعة (احد) التي كانت وطاته فيها مع المشركين شديدة على المسلمين وكان تديره سباني هزيمتهم وقد جرح فيها الرسول الكريم وقتل عمه حمزة غيلة .
- ١٢ - وقعة حنين التي جرح في اولها خالد جرحاً بليغاً في عملية غادرة ثم كان النصر للمسلمين بفضل ثبات الرسول الكريم وشجاعته وبأس اصحابه وجنوده وعلى رأسهم خالد .
- ١٣ - اشارة الى ما عرف عن ابن الوليد من حبه لمدينة حمص التي كان اميرها وايناره السكن فيها بعد ان الح عليه اهل يشرب حين زارها للقاء الخليفة ابن الخطاب للبقاء بينهم في المدينة .
- ١٤ - اشارة الى ثناء ابن الوليد على اهل حمص الذين احبوه والتفؤوا حوله كما في البيت اشارة الى ولد له من البنين في حمص وهم بمثابة اكباد . وفي القول ما يذكر بقول الشاعر العربي :
وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
- ١٥ - كان خالد يشيد بمآثره في الكرم والاربعية التي ربي عليها ايام ابيه الوليد .
- ١٦ - السواد : حدة العين . وهن يردن ان خالد - البدر - بعد غيابه اصبح سكنه في القلوب بعد ان كان في النواظر .
- ١٧ - يعود خالد في نجواه الى حمص .